مقدمة الترجمة العربية

إن علم الاجتماع هو العلم الذى نشأ كرد فعل للتغير المفاجىء فى عالم مضطرب ، وقد حاول علماء الاجتماع ان يوجدوا نوعا من الاستقرار والنظام فى هذا العالم المتغير والمضطرب ... فجذور علم الإجتماع قامت كمحاولة لفهم التغير ... إننا نجد فى التغير الجذرى الذى حدث فى أوربا فى بدايات القرن التاسع عشر جذورا لعلم الاجتماع وبدايات لعلم اجتماع التنمية ، ولذلك يعتبر ظهور علم اجتماع التنمية حديثا مع النهضة العلمية الحديثة – وقد ارتبط ظهوره بظهور المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الكبيرة والتى ظهرت حديثا بالمجتمعات الغربية نتيجة للثورة الصناعية والسياسية وما نشأ عنهما من تغيرات بنائية واجتماعية ... وعلى ذلك فلقد استمد علم الاجتماع بوجه عام وعلم اجتماع التنمية بوجه خاص قوة دفع من هذه الظروف – ظروف النشأة – كما تطور بشكل هائل خلال فترة زمنية قصيرة بالنسبة لتطوره التاريخى فى باقى الفترات ... فلقد كان علم الاجتماع محاولة قام بها مفكرو هذه المجتمعات لمواجهة المشكلات التى ثارت خلال تلك الفترات ، ولذلك يعتبر علم الاجتماع بهذه النشأة الغربية الحديثة نتاجا للتغيرات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية ، ومرتبطا أشد الارتباط بهذه النشأة وظروف تلك المجتمات هذا الارتباط الشديد بين نشأة العلم وظروف هذه النشأة المرتبطة بظروف مجتمعية غاية فى التغير والتحول ، ترتب عليها عدم ملاءمة هذه النظريات والمجتمعات المختلفة فى ظروفها التاريخية ، وإذا نظرنا إلى كل من "سان سيمون" وتلميذه "أوجست كونت" فنجد أنهم يعدون كعلماء اجتماع للتنمية ، وهذه حقيقة الأخير على وجه الخصوص . ففى خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت نظريات كثيرة ، حاولت تفسير عمليات التغير التى تحدث حولها . مع التعقيدات التى تحدث فى المجتمع ووجود التخصصات المتعددة ... ولذلك نجد "هربرت سبنسر" ينظر إلى التنمية على أنها تنمية من الداخل ، وأن المجتمع ينمو داخليا كما يحدث فى الأجسام الحية – تكاثر الخلايا – والأنقسام فى الجنين ... ونجد تونيرمثلا ... له رأى فى التنمية يشبه ذلك وهو أن التنمية تحدث من الداخل ولذلك نجده يهتم بالتغيرات الاجتماعية والاخلاقية على أنها أساس التغير بالمجتمع ، وبين التغير والانتقال المفاجىء والذى لخصه فى

مصطلحات تمثل نمطين لقطبين مختلفين ... أما إميل دور كايم فيتكلم عن نمطين للتضامن الاجتماعى (العضوى والميكانيكى) وهى خاصية المجتمعات ما قبل الصناعة وبعدها ...

ولابد من التأكيد على أن لنظريات "دوركايم" تأثيرا كبيرا على علم اجتماع التنمية . فحتى منتصف الستينات ومعظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا الذين قد بحثوا وفكروا فى التنمية والتغير قد تساؤلوا وفكروا بنفس طريقة دوركايم ، كما أن أفكار دوركايم كانت سائدة وتعكس ما يراه معظم الغربيين من آراء ومعتقدات ، وخاصة لتحقيق نمط معين من المجتمع ومن السياسة ، والتى تطرح الشرعية القانونية على الوضع السائد لشئون الدولة ، ولقد استمر هذا الفكر التقليدى حتى الآن ، إذن ركز دوركايم على شرح التغيرفى ضوء الروابط والعلاقات الاخلاقية أو ما سماه "بالتضامن الاجتماعى" وقد أكد على عمليات التطور الاجتماعى ولقد تأثر بعض المنظرين المحدثون فى علم الاجتماع والتنمية امثال "رودفيلد" وبارسونز ، و"ليفى" "وايزيستاد" و"ولبرت مور" و"وولت روسو" بأعمال دوركايم عن التغير ووجدت آراؤه صدى وتقبل لديهم إلا أن كتاباتهم كان ينقصها فى بعض الأحيان البعد التاريخى والتحليل العميق ولا يمكن أن نهمل الدور الأساسى الذى قدمه ڤيبر للتنمية ، وذلك بدراسته للنظام الرأسمالى ، وكتابه «اخلاقيات البروتستانت وروح الرأسمالية» ، فدراسته للرأسمالية كانت جزءا من دراسة كبيرة اجتماعية وتاريخية واقتصادية فحص فيها عدة مجتمعات مثل فلسطين القديمة ، والهند والصين وغرب أوربا محاولا استخلاص نتائج من مجتمعات ذات توجهات مختلفة وأسباب انتشار الرأسمالية الصناعية ، وقد ربط بين المعتقدات الدينية ونشأة المذهب "الكالڤنى" عند المسيحيين فى أوروبا وهذه النشأة الرأسمالية ... كما أعطى اهتماما كبيرا بالنواحى الثقافية وما يسميه "بالسلوك العقلانى أو الرشيد" وقد تبلوت هذه الأفكار فى الستينات حيث تبنى هذه الأفكار كثير من المفكرين مثل "داڤيد مكليلاند" ويختلف ڤيبر عن غيره من التطوريين فى أنه لا يرى ضرورة وجود نمط للتنمية فى التاريخ ، وأن المجتمعات لابد وأن تفهم من خلال ظروفها الخاصة ، وليس فى ضوء نظريات عامة كالتى انتجها "دوركايم" ، فتأثير "ڤيبر" على التنمية والفكرالاجتماعى ليس مباشرا كتأثير "دوركايم" . إنه تأثير غير مباشر – اختيارى– وقد اعطى للتاريخ اهتماما كبيرا . وقد تبنى آراء ڤيبر عن الترشيد والعقلانية والتخطيط والنمو والانتقال من التقليدى إلى الحديث كثير من المفكرين ... فعلى سبيل المثال ... نجد "تالكوت بارسونز" ومن عملوا معه قد

اكدوا على أهمية القيم فى تحديد سلوك الناس ، ونجد ذلك واضحا فى أعمال "دافيد مكليلاند" ، حيث ركز على العوامل الداخلية والقيم والدوافع لدى الناس ، وبالتالى فنجد انعكاس هذا الفكر النظرى على الممارسة والنظر لمشكلات التخلف والفقر على أنها نتاج للفكر التقليدى غيرالرشيد وغير العقلانى ، وبالتالى فإن الحل يقع على البرامج التعليمية والمساعدات الفنية التى تهدف إلى تحقيق الانجازات للشعوب المتخلفة ...

وبينما أعطى ڤيبر اهتماما خاصا للدراسة التاريخية إلا أن الذين تأثروا به أخذوا من نظريته ما يختص بآراء الناس وثقافتهم وقيمهم وأثر ذلك على التنمية ، كما أخذوا عنه فكرة الرأسمالية وما كتبه ڤيبر عن "السلوك العقلانى أو الرشيد Rational Behavior .

مما سبق يتضح أن علماء الاجتماع الأوائل قد اهتموا بإقامة نماذج مثالية تعكس التناقض بين المجتمع القديم التقليدى والمجتمع الحديث أو الجديد مستندين إلى نزعة تطورية إنعكست فى هذه الثنائيات التى قدموها ، ومن هؤلاء العلماء "سير هنرى مين" ، و"تونيز" و"دوركايم" و"ماكس ڤيبر" والانماط المثالية والتى أسماها "بالجيماينشافت" و "الجيزلشافت"

كما أن هناك اختلافات جوهرية فى المنطلقات النظرية لعلم اجتماع التنمية واتجاهاته ... سواء كان اتجاها ماديا ... – والذى أرسى دعائمه كارل ماركس – أو اتجاها مثاليا والذى أسسه ماكس ڤيبر – فلقد اهتم ماركس وڤيبر بنشأة النظام الرأسمالى بوصفه أسلوبا للتنمية ، ولقد نظر ماركس إلى التنمية الرأسمالية أو التحديث بوصفها عملية بدأت فى أوربا ثم سادت فى العالم كله واعتبر أن الرأسمالية نتيجة من نتائج التقدم التكنولوچى والصناعى وبالتالى ظهور السوق العالمى وزيادة عدد المدن والتوسع فيها وهجرة العمالة اليها من الريف ... وبالرغم من أن كل من ماركس وڤيبر قد تبنا اتجاها تاريخيا – بنائيا إلا أنهما إنطلقا من وجهتى نظر متعارضتين فى تفسير نشأة النظام الرأسمالى ، حيث درس ڤيبر العلاقة بين المعتقدات الدينية وعلاقتها بالنظام الاقتصادى ... إلخ . أما ماركس فقد درس نشأة النظام الرأسمالى من خلال النظام الإقطاعى ثم ظهور المشروعات الرأسمالية وما يحدثه ذلك من اغتراب للمجتمع وتفكك ... إلخ .

ولم يقتصر كل من كارل ماركس وماكس ڤيبر فى دراستهم للرأسمالية على آثارها

الاقتصادية بل درسا آثارها على المجتمع ككل سواء على بنائه الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى ... إلخ . وتعد كتابات ماركس محاولة لدراسة المجتمع الاقطاعى التقليدى وتحوله إلى مجتمع برجوازى حديث ... وتعد دراساته عن المجتمع الزراعى إسهاما فى تحليل المجمتع التقليد ى، فنجده يحلل نظم الحكم البريطانى فى الهند وبذلك فهو يحلل عملية التنمية فى مجتمع تقليدى متخلف .

– ولقد تعرضت هذه النظريات السسيولوجية التى ظهرت خلال القرن التاسع عشر . لكثير من النقد كما ظهر بها كثيرمن الخلط بين مفاهيم هامة فى العلم ... كمفهوم التغير والتطور والنمو والتقدم ، ففكرة النمو غالبا ما تختلط مع فكرة التطور والتقدم ... كما انتقدت لعدم ملائمتها للتطبيق على الظواهر الاجتماعية وطبيعة العلاقات بينها ، كما لم تستطع هذه النظريات تفسير التخلف فى الدول النامية ، خاصة تفسيره من خلال العلاقات العالمية بين الدول المستعمرة والدول المستعمرة ، ثم من خلال السياسة الامبريالية الحالة . كما تميل النظرية التطورية إلى النظر إلى المجتمعات المتخلفةعلى أنها هى المسؤلة عن فشلها حيث أنها كيانات مغلقة وأن أسباب تخلفها يرجع إلى طبيعة أبنيتها الثقافية التقليدية وبالتالى فهى تحمل هذه المجتمعات – النامية – عبء تخلفها . وهنا تتجاهل التاريخ السياسى والدور الذى قام به العالم الغربى فى تشكيل ابنية هذه المجتمعات ... فهى تتضمن تحيزا ايدولوجيا ... فلقد قدمت هذه النظريات وصفا للمجتمعات التقليدية والبدائية والمجتمعات الحديثة – المتقدمة – ولكنها لم تعط تفسيرا لأسباب التغير والتحول وديناميات .

وبالتالى لا يمكننا أن نفهم التنمية فى دول العالم الثالث فهما واقعيا صادقا من خلال هذا التراث الاجتماعى وهذه النظريات ... إن المفاهيم التى ألفناها من علم اجتماع القرن التاسع عشر تعد محدودة ومحلية ولا نستطيع أن نفسر بها البناءات الاجتماعية العالمية فى الوقت الحاضر وهذا التفاوت العالمى الذى نعيشه اليوم بين من يملك التكنولوجيا ومن لا يملكها وما يرتبط بذلك من تفاوت اجتماعى كبير بين عالم متقدم وغنى وعالم متخلف وفقير وعلاقة كل ذلك بالنظام والنسق العالمى .

إذن نستطيع القول أن علم اجتماع التنمية لا يمكن أن يعالج مشاكل العالم الثالث فى

الوقت الحاضر بعيدا عن الموقف والاطار العالمى - التاريخى ... فالمفكرون الأوربيون اقتصاديون واجتماعيون قد ركزوا على قضايا البلاد الصناعية المتقدمة ، غافلين التنظير لأوضاع البلاد النامية * وكانت الدراسات التنموية ذات طابع استرجاعى ولم تأخذ طابعاً مستقبليا يأخذ فى اعتباره المجتمع الإنسانى العالمى ويمس قضية التنمية فى جوهرها وعلى اختلاف مستوياتها ، وعلى أساس أن التقدم إذا حدث فى مكان ما فى العالم لابد أن يتأثر به باقى الدول .

ولقد حصلت معظم هذه البلاد النامية على استقلالها ، وتسلم الحكم حكومات وطنية . ولكن هذه الحكومات واجهت تركه مهلهه ومشاكل طاحنة سواء الناتجة عن عملية التحضر التى تمر بها هذه الدول منذ بداية القرن السابق وهى عملية مرتبطة بتداعى أنماط العمل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والثقافى ، أو المشاكل المرتبطة بتعاقب أنظمة حكم متعددة سواء كانت أو توقراطية أو ملكية إلخ هذا بالإضافة إلى التواجد الاستعمارى وما أحدثه من مشكلات لهذه الدول وإذا أخذنا تجربة مصر كدولة من هذه الدول نجد أن ضباط الجيش . قد حلوا محل الحكم الملكى وتسلموا دولة استنذفتهاالظروف السابق شرحها ولقد تميز الواقع الاقتصادى فى مصر بوجود فجوة اخذت فى التزايد بين سكان مصر ومواردها بالاضافة إلى سوء توزيع هذه الموارد والهوه الشديدة فى هذا التوزيع بين فئات المجتمع . وبدأت هذه الدول فى البناء الداخلى وبدأت فى تنمية مجتمعاتها بغرض اللحاق بالدول المتقدمة . إلا أنه ظهرت مشكلات عديدة كان من شأنها أن تعطل حركة التنمية وأهم هذه المشكلات طبيعة البناءات الاجتماعية التى ورثتها هذه الدول من عصر الاستعمار ، هذا بالاضافة إلى التحديات المتصلة بالنظام الدولى الجديد كما زاد الموقف تعقيدا ذلك التفاوت الاقتصادى والاجتماعى بين هذه الدول النامية من ناحية والدول المتقدمة من ناحية أخرى ... ولذلك بدأ علماء الاجتماع والاقتصاد دراسة التنمية الاقتصادية والاجتماعية واساليبها ودراسة البناءات الاجتماعية بتلك المجتمعات المراد تنميتها من خلال الاسهامات المختلفة التى قدمها كل من "كارل ماركس" و"ماكس ڤيبر" - كما سبقت

---

* من الأمثلة على ذلك نجد على سبيل المثال "ماكس ڤيبر قد قام بدراسات فى الاجتماع الدينى والاقتصادى والقانونى لبعض بلاد الشرق ، ولكن هذه الدراسات كانت عبارة عن مقارنات بين الثقافات الغربية والثقافات الشرقية وأن الثقافات الشرقية لم تكن مقصودة لذاتها ، ولكن كانت لفهم الثقافات الغربية فهما أعمق .

الاشارة – ودراستهم عن نشأة النظام الرأسمالى ... وجدير بالذكر هنا أن مؤلف ڤيير وجد قبولا شديدا مما أدى إلى انتقاد آراء ماركس بل ورفضها ... إلا أن بعض الدارسين الذين تعمقوا فى فهم دراسات ڤيير قد أساءوا فهم فكره فهما صحيحا ، وبذلك تجنبوا الجوانب الايجابية من فكره والمتمثلة فى الفهم البنائى – التاريخى الشامل ... لكن فى النهاية نجد أن فكره كان له الأثر العظيم .

وظهرت اتجاهات نظرية حديثة * لفهم ظاهرة التخلف فى الدول النامية ، إلا أن هذه الاتجاهات قد انطلقت من تصور محدد لفهم الظاهرة ويتلخص فى أن النموذج الغربى للتحديث هو الهدف وأن عملية التنمية تنحصر فى اكتساب الدول النامية لعناصر التقدم الموجودة فى الدول المتقدمة – اتجاه النماذج أو المؤشرات – وأن هناك مراحل معينة لابد أن تمر به الدول المتخلفة وهى المراحل التى مرت بها الدول المتقدمة – الاتجاه التطورى – وتحديد العناصر المادية والثقافية الموجودة بالدول المتقدمة تمهيدا لنقلها للدول المتخلفة لتنميتها – الاتجاه الانتشارى – أو أن النظام الرأسمالى الموجود بالدول الصناعية هو النموذج الذى يجب أن تحتذيه الدول المتخلفة وأنه الأمل الوحيد لتنمية الدول المتخلفة .

والملاحظ أن الاتجاهات الخمسة الأولى تتسم بنزعة تطورية محافظة ، وتعتبر امتدادا لعلم الاجتماع الكلاسيكى الغربى ، ولذلك وجه إليها انتقادات حيث إنها لم توضح بكفاءة عملية التغير التى تحدث فى الدول النامية والمشاكل التى تحدث فيها ولم تفسر ظاهرة التخلف ولماذا استمر الفشل فى هذه الدول للحصول على الطعام وانتقدت نظرية التحديث ** فى ضوء كثير

* الاتجاهات النظرية الحديثة هى :
– اتجاه النماذج أو المؤشرات . – الاتجاه التطورى المحدث .
– الاتجاه الانتشارى . – الاتجاه السيكولوجى .
– اتجاه المكانة الدولية . – الاتجاه الماركسى الحديث .

** إن نظرية التحديث هى اتحاد كل من التطورية والوظيفية والوضعية . وهى تتسم بعدة سمات أهمها أن التنمية تحدث من داخل المجتمع ، أى أن العوامل الخارجية مثل الاحتلال أو التبعية أو العوامل الثقافية ليس لها تأثير هام وأن التنمية تتبع خطوات محددة أو أنماطا واحدة فى كل المجتمعات ، ولذلك يجب على المجتمعات المتخلفة أن تحدد نماذج من الخبرات الماضية لبعض البلاد المتقدمة ، لتتبع نفس الخطوات وتتبع نفس الأنماط لتصل إلى نفس النتائج التى وصلت إليها هذه الدول ، والنتيجة النهائية هى الاستقرار السياسى والثراء . ولقد لخص «روستو» هذا المدخل فى مراحل خمسة هى الحركة المرحلية التى يمر بها المجتمع التقليدى والظروف السابقة لمرحلة التنمية ثم الانطلاق نحو النضج وأخيرا عصر الجماهير الاستهلاكى .

من التجارب التى تمت فى كثير من الدول الافريقية والأسيوية والتى حصلت على استقلالها فى هذه الفترة التاريخية ... كما حدث أيضا فى دول أمريكا اللاتينية وهى سابقة فى استقلالها ببضع سنوات .

وكانت الانتقادات الأساسية أن هذه الدول النامية التى تختلف فى ظروفها التاريخية (تاريخها مع الاستعمار وتأثير هذا الاستعمال عليها أو تاريخها السياسى والثقافى ... إلخ) لا تستطيع اتباع الخطوات التى اتبعتها الدول التى نمت من قبل من خلال طريق طويل مستهلك نحو التنمية – وقد اكدت التجربة عدم حدوث ذلك وفشله ... إن معظم التحليلات لم تكن كافية وأنها لم توضح ما يحدث فى دول العالم الثالث بشىء من الواقعية ولذلك ظهرت نظريات تتساءل عن الاستعمار وتاريخه مع الدول النامية وتأثره عليها . وبذلك بدأت النظرة تتغير الى هذه المجتمعات كوحدات مغلقة على ذاتها ، وأكدوا ضرورة مناقشة مشاكل التنمية لكل مجتمع على حدة ولكن فى الوقت نفسه علاقة هذا المجتمع وموقفه من النسق العالمى ، Relation its place in world system إذن نستطيع أن نقول إنه إزاء الصعوبات فى فهم الدول النامية أعاد علماء الاجتماع دراسة مصدر آخر من الفكر الاجتماعى وهى الافكار القائمة على الفكر الماركسى ، أمثال ليون تروسكى ، وفلاديمير ، وهيربرت ماركيوز ، وماندليل ولقد هاجم "فرانك" نظرية التحديث بعنوان مثير وهو "علم اجتماع التنمية وتخلف علم الاجتماع" "The Sociology of Development and the Underdevelopment of Sociology" واعتبر أن هذه النظريات قد فشلت فى التعريف الصحيح لأنواع العمليات الاجتماعية والاقتصادية فى الدول النامية ، بل إنها عديمة الفائدة ، واستشهد بدراسات تاريخية لحالات مثل "شيلى" "والبرازيل" وبين فى دراسته عن امريكا اللاتينية أن التنمية فى وضعها الحالى ، هى نتيجة للنمو الرأسمالى . ومصادرة الفائض الاقتصادى من الكثيرين واعطائه للقلة . كما أوضح التناقضات فى النظام الرأسمالى والتنمية ... وما نتج عنه وما أسماه بالتخلف التنموى فى الدول التابعة والتى يصادر فيها الزائد من انتاجها ، والتنمية الاقتصاية للمدن المركزية والتى تستولى على ذلك الفائض ولقد اعتبر "فرانك" أن العلاقات والمساعدات بين الدول الغنية والفقيرة ما هى إلا علاقة تعاطف وينتج عنها مزيد من الفقر والتخلف ...

ولذلك نجد أن "فرانك" وآخرون – أصحاب نظرية التبعية Dependency theorists قد

أثارت أفكارهم تساؤلات جديدة عن التنمية بطريقة جديدة ... وقد نظروا إلى مشاكل العالم الثالث على أنها يمكن أن تفهم كعائد للاستثمار أو الاستغلال من جانب العالم المتقدم . أما العوامل الداخلية كالقصور أوالنقص فى الموارد الطبيعية وصراع الطبقات أو الزيادة السكانية ... إلخ يمكن إعادة النظر فيها ... وبذلك نجد أن نظرية التبعية قد أمدتنا بنموذج بسيط لطبيعة وأصل التخلف ... ولكنها قد فشلت فى مواجهة بعض الأسئلة الهامة والمحورية فى نظريات التحديث ... فمثلا نجدها لم تعط وزن حقيقى للدور الذى يقوم به كل من الأفكار و الثقافة فى التنمية ... كما أكد ذلك "ڤيبر" ... حيث أكد على الدور الذى لعبته المعتقدات الدينية ... وهو البعد الغائب فى نظرية التبعية ، كما أن نظرية التبعية تعمم على كل المجتمعات دون النظر لظروف المجتمعات المختلفة ... فهى لم تفرق بكفاءة بين ما هو تاريخى وبين ظروف كل مجتمع على حده ...

ومن العلماء من أخذ خليطا من الأفكار الماركسية ونظرية التحديث ليكون فكرا جديدا للتنمية أمثال بارنجتون مور B. Moore والذى درس تاريخ كثير من الدول المختلفة – مثل فرنسا والولايات المتحدة واليابان والصين – وقد توصل إلى وجود طرق مختلفة للتنمية ...

كما وجد نمط من النظريات يعتبر تطور لنظرية التبعية ... وهو نظرية النسق العالمى World System Theory إلا أنها تختلف عن نظرية التبعية فيما تلقية من اهتمام للخواص التاريخية لمناطق مختلفة من العالم ، ولا تعمم بنفس طريقة نظرية التبعية ... فنظرية النسق العالمى تعطى اهتماما للتاريخ والخواص التاريخية وهى ترى أن مشاكل العالم الثالث هى نتاج لعلاقات استغلال تاريخية بين الدول المتقدمة والمجتمعات النامية .

وهنا نجد أن المنظور قد تغير تماما وأصبحت التنمية لا ينظر إليها على أنها مشكلة تواجهها مجتمعات منفصلة ، بل ينظر إليها من خلال النسق الأقتصادى والسياسى العالمى .

ويؤكد هؤلاء العلماء على التناقض الأساس القائم فى العالم اليوم وهو نتيجة للعلاقات غير المتكافئة والقائمة على الاستغلال بين الامبريالية من ناحية وشعوب العالم الثالث من ناحية أخرى ، حيث تراكم رأس المال والغنى فى الشمال من العالم والدول الفقيرة فى الجنوب ودور السوق العالمية والشركات متعددة الجنسيات ... إلخ .

وهذا الكتاب الموجود بين أيدينا يعتبر نموذجا للمحاولات الجادة لعلماء اجتماع التنمية

فى البلاد الغربية . فلقد درس "بارنت" بعمق شديد التراث والفكر الاجتماعى دراسة نقدية واعية متخذا موقفا نقديا من هذا الفكر ، ولم يتحيز ولم يمجد نظريات أو أفكار بعينها ، كما لم يتخذ موقفا محافظا أو تقليديا من هذا التراث ... والمؤلف مكون من ثلاثة أجزاء خصص الجزء الأول وهو مكون من فصلين كمدخل نظرى للدراسة فتعرض فى لفصل الأول لبدايات علم الاجتماع والنشأة وتطور النظريات الاجتماعية ونظريات التنمية ودور النظرية فى العلم . وناقش فى الفصل الثانى نظريات التنمية فى ضوء خبرات دول العالم الثانى والانتقادات التى وجهت إلى نظرية التحديث وظهور اتجاهات حديثة فى فهم التنمية فى العالم الثالث وأثر كل من نظرية التبعية ونظرية النسق العالمى فى الفكر فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة والانتقادات التى وجهت إليها من داخل الماركسية التقليدية ذاتها خاصة ما نشره "وارن" .

أما الجزء الثانى وهو الجزء الأكبر من الكتاب ويحتوى على ستة فصول فقد خصصه لمناقشة الريف والمدينة ففى الفصل الثالث بعنوان التحضر والمدنية . درس نمو المدن وعمليات التحضر وفهم طبيعة الحياة الاجتماعية فى المدن ، وعلاقة ذلك بعمليات التنمية ، كما ناقش مفهومى الاستيعاب والتكامل وكيف استخدمت معظم الدراسات لهذه المفاهيم ، لكى تفهم كيف أصبح الغرباء جزءا من حياة المجتمع الحضرى السائد ، كما درس التحضر ونظرية التحديث والنقد الموجه لهذه النظرية فى فهم الظاهرة ، ثم تحليل الماركسيين للتحضر ، مستشهدا بدراسات أمبيريقية وبالواقع الذى درسه الكاتب أو شاهده ليفند أو بعض مثل هذه النظريات كما تعرض لبعض النماذج الخاصة بالتحضر ومنها على سبيل المثال نموذج "كاستل" والثلاث مراحل كما تعرض لهجرة العمالة الزراعية إلى المدينة وكيف أنها عملية معقدة والتى تربط المدينة بالريف اقتصاديا وثقافيا .

وقد ناقش فى الفصل الرابع التصنيع وخاصة فى دول العالم الثالث ، وكيف أن الصناعة كانت إحدى المشكلات الهامة والأساسية لعلم الاجتماع ، وأنها أيضا تحظى باهتمام علم اجتماع التنمية ... وتعرض لبعض الكتاب فى علم الاجتماع الذين كتبوا عن المجتمع قبل الصناعى امثال هنرى مين ، ومن خلال دوركايم وتونيز الى ردفيلد واتزايونى وايزنستاد فى الستينات والسبعينات من القرن الحالى ، حيث كانت محاولاتهم لوصف سمات المجتمع الصناعى والعمليات التى من خلالها يحدث الانتقال من مجتمع ما قبل الصناعة الى مجتمع

صناعى . وقد ناقش مشكلات التصنيع فى الدول النامية وكيف كان التغير بطيئا ، وهل كان التغير من الداخل فقط وما هى العوامل الخارجية ، وهل هناك تاريخ واحد للتصنيع أو أن هناك اختلافا حول هذا التاريخ وقد تعرض للنظريات الخاصة بالتنمية فى ضوء التجارب التى مرت بها مجتمعات العالم الثانى فى هذا المجال – التصنيع – ومدى الاختلافات والتناقض بين المنطلقات النظرية والواقع الفعلى ، ودور الاستعمار وكيف نمت المجتمعات الصناعية على حساب المجتمعات المتخلفة أو المستعمرة كما تعرض لآراء ڤيبر والتصنيع ، أى آراءه فى نظام العمل والعمالة والاختراعات وموقع ذلك من التغير الاجتماعى والتاريخى .

كما ناقش مايعرف بالنظريات المحورية والتصنيع من خلال أعمال كل من "كلارك كير" و"هاربن" ومتطلبات الانتاج الصناعى . كما ناقش أثر العزلة التى حدثت خلال الحرب العالمية الثانية وحاجة دول العالم الثالث للتصنيع وفكرة استيراد الصناعات البديلة وفشلها وظهور نظرية التبعية كرد فعل لهذا الفشل ... وأخيرا بين أن مشكلة التصنيع هى مفتاح مشاكل علم الاجتماع بوجه عام وعلم اجتماع التنمية بوجه خاص ، وقد عرض لنظرية التحديث القائمة على رأى "دوركايم" و"ڤيبر" واللذان يؤكدان على أن التصنيع يؤدى إلى التغيرات فى اتجاهات الناس وعلاقاتهم ... ويناقش عملية الترشيد وڤيبر ... كما حلل أصول التصنيع لدى كل من الماركسيون والدوركايميون ... والاتجاهات المنبثقة من كليهما ... وقد تعرض لبعض التجارب التنموية ومنها تجارب ما يسمى "بالنمور الأربعة" ... هنج كنج ، وكوريا الجنوبية ، وتيوان ، وسنغافورة – ودور وأنشطة الاتحادات المتنقلة عبر القارات ... فى الدول النامية ومشاكل التحديث والصناعة ...

وفى الفصل الخامس وعنوانه التنمية الزراعية ودخولها السوق ... فيتعرض "بارنت" فى هذا الفصل لتجارب الدول النامية فى التنمية الزراعية ... ويبين أن النشاط الزراعى هوالنشاط الرئيسى لهذه الدول وأن هناك مشكلة هامة بالنسبة للتنمية لهذه الدول وهى كيفية الانتقال من الانتاج المعيشى والمجتمع المعيشى إلى إنتاج من أجل السوق ودخولها فى مجموعة كبيرة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية أو ما يسمى "بالتغيرات الزراعية والريفية" وقد تعرض لتاريخ الاستعمار مع هذه الدول والدعوة التى أعلنها الاستعمار تحت شعار "نشر الحضارة" وساق الآراء التى فندت هذه الدعوة والأسباب الحقيقة وراء الاستعمار وقد استشهد بتاريخ بعض المستعمرات بأفريقيا ودور الاستعمار فى استغلال هذه الدول لصالحه ولصالح اقتصادياته

ولتنمية مجتمعاتهم ... وكيف كانت فترة الاستعمار بداية لإقامة عمليات للإنتاج الجديد ، ووجود فئات اجتماعية جديدة ، وظهور نظريات فى علم الاجتماع والتنمية لدراسة التنمية الرأسمالية وتحولا كبيرا فى التنظير نتيجة تحول دول العالم الثالث حيث اصبحوا مشاركين فى السوق العالمى للزراعة والسلع والعمالة .

وقد تعرض لمدرستين للفكر حاولت كل منهما شرح أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات الخاصة بالسوق ، وغير الخاصة بالسوق وهاتان النظريتان معروفتان بأسم الواقعية والشكلية ... كما ناقش هذه التغيرات والتحولات فى الريف ومحاولة فهمها من خلال تراث علم الاجتماع والدوركايمية التقليدية وكيف فسرت المشكلة من خلال تغير قيم أهل الريف ليستجيبوا لحوافز السوق ... وبين أوجه القوة والقصور فى هذا الفهم والتحليل ... ثم عرض للماركسية والتغير الريفى وبين النقد الذى وجه لها ... وعلى ذلك فقد توصل إلى أن قرى الدول النامية قرى فقيرة وبدائية وحيازاتها صغيرة . وبالتالى فالانتاج الزراعى ضئيل وإنتاج من أجل المعيشة يكفى لأهل البيت بالكاد ... هذا بالإضافة للاستغلال المستمر من جانب السلطة سواء كانت سلطة أهلية أو سلطة مستعمر ، هذا الاستغلال سواء عن طريق الضرائب الباهظة أو فوائد ديون ... إلخ وأن بداية اتصال هذه المجتمعات بالسوق من خلال الاستعمار .

ويقدم بارنت فى الفصل السادس اسهاما كبيرا فى فهم التنمية الريفية والفروق الاجتماعية ، من خلال تحليل المداخل النظرية لدراسة التغير والتحول فى ريف العالم الثالث ودرس الفروق بين المجتمعات القائمة على التسويق واللاتسويق والمشكلات التى نتجت عن دخولها فى علاقات السوق والنظام العالمى وتغلغلها فى الاقتصاد النقدى وما يمكن أن ينتج عن ذلك من تغيرات اجتماعية كبيرة ، والتأثيرات المختلفة التى تحدثه المراكز الحضرية على هذه القرى ، كما عرض لبعض المشكلات التى ظهرت عندما حاول علم الاجتماع فهم العلاقة بين هذه المجتمعات فبينما نجد أن هناك تقسيمات للفئات الطبقية مثل طبقة البروليتاريا والطبقة البرجوازية نجد أيضا اشكالا مختلفة متعددة ومختلطة للتنظيم الاجتماعى والتى تظهر على المدى الطويل للإنتاج المعيشى وتمر من خلال المزارع البسيطة الى البروليتاريزم وخلال هذا التحول يمكن أن تلعب العوامل الثقافية دورا هاما فى تقرير النتائج الخاصة بالتفاعلات بين التنظيمات الاجتماعية فيما قبل الرأسمالية وما بعدها ...

كما ناقش الثورة الخضراء واستخدام التكنولوجية لمنفعةالبعض – أثرياء العالم الثالث ولضرر الأخرين – ففقراء الريف من العمال والإجراء وأصحاب الأراضى الصغيرة الحجم – وتزايد الفروق ، وانتشرت الزراعة كعمل تجارى ودخول الشركات التجارية العالمية عبر الدول بغرض الربح والاستغلال فهى لا تضع فى حساباتها أو ضمن أهدافها مصالح فقراء الريف ولكنها تعمل مع الدول واثرياء العالم الثالث ، للذين يمثلون مظهر من مظاهر النسق العالمى ... كماناقش المجاعات التى حدثت فى بعض الدول النامية وأوضح أنها نتيجة للفقر والجفاف لكن الجفاف طبيعى ولكن الفقر عملية اجتماعية ...

ويناقش "بارنت" فى الفصل السابع دور الدولة والمداخل النظرية والنظريات الحديثة التى تناقش هذا الدور وهل تخدم الدولة مصالح واهتمامات فئة على حساب أخرى ، أى تخدم الدولة مصالح واهتمامات الأثرياء ولا تعير اهتمامها بالفقراء ، أم هى تعمل بطريقة محايدة مع جميع الفئات الاجتماعية ... ومن خلال الدراسة التاريخية وعلى سبيل المثال نجد أن الانتقال من النظام القائم على اللاتسويق إلى التسويق نجد أنه كان يدار من قبل الدولة ... ولقد أوضح "بارنت" مركزية الدولة فى التنمية والنمو الاقتصادى فى دول العالم الثالث ... ولقد عرض للاتجاهات النظرية والتى نظرت للدولة بصورة مختلفة نتيجة لهذه المنطلقات النظرية فنجد نظرية التحديث تنظر للدولة على أنها نوع من الحكم المحايد ولكن الاتجاه المادى يتساءل أسئلة أخرى مثل لمن تعمل الدولة ولصالح من ... وقد ضرب "بارنت" مثالا لتدخل الدولة وما تحدثه من مشاكل بالتعليم فى دول العالم الثالث والدول المتقدمة وأوضح أن هناك مشاكل خطيرة مرتبطة بذلك ... ولقد ناقش النظريات الخاصة بالتعليم والنمو الاقتصادى "لدور" Dore ، كما تعرض لنظريات كل من "إليسن" و"ريمر" و"فرير" وأورد تجارب لبعض المجتمعات النامية مثل بعض البلاد الأفريقية – وقد تبين فشل التعليم فى هذه المجتمعات فى تحقيق أهدافه ... وهى إنتاج أناس جيدو التمرين لسد حاجة الدولة ... وليس التعليم لمجرد الحصول على مؤهل ووظيفة حكومية فقط وما يصاحب ذلك من تدمير لحب الاستطلاع ...

أما الفصل الثامن فنجد مناقشة جذابة وشيقة بل وممتعه للنوع Gender والتنمية حيث يبين تبعية المرأة للرجل وخضوعها له فى كل المجتمعات ... ويبين أن هذه التبعية ليست طبيعية ولكنها ثقافية ... كما يعرض لنا الاتجاهات التى تناولت دور المرأة فى التنمية وخاصة فى

المجتمعات الزراعية المعيشية حيث تتحمل المرأة العبء الأساسى والدور الكبير فى العمل وتتلقى الجزاء القليل ... ويعرض لكثير من الابحاث التى تدعمها النسب والتى تؤكد على دور المرأة فى انتاج الطعام وزيادة ساعات عملها عن الساعات التى يعملها الرجل ... ثم يبين أن التنمية تؤدى أحيانا إلى عدم أخذ دور المرأة فى الاعتبار فهى غير مرئية للمخططين والسياسيين رغم كل ما تقوم به . فعندما يخطط للتنمية فإن هذا الدور ينسى وبالتالى فإن التنمية تزيد من تبعية المرأة للرجل . والمداخل المختلفة التى درست هذا الدور سواء بدراسة علاقات المرأة بوسائل الإنتاج ، أو تبعيتها للرجل ، هذه التبعية التى لا تظهر مع التنمية فى المجتمعات الرأسمالية ولكنها موجودة فى كل المجتمعات ... ويقدم "بارنت" فى هذا الفصل دليل "موريس" والذى يعرض النسب المئوية للقراءة والكتابة بين الرجال والنساء ليبين نصيب المرأة الضعيف من التعليم ... كما يعرض نفس الدليل – دليل موريس للحياة الطبيعية – معدل المواليد والوفيات والتعرض لبعض الأمراض ... كل ذلك بغرض قياس التنمية بالمجتمعات المراد دراستها . ويؤكد "بارنت" أن هناك تحيزا أكاديميا ضد المرأة حيث أن مؤسسى علم الاجتماع من الرجال ، وان بإستثناء "إنجلز" – الذى كتب عن الأسرة وذكر شيئا عن المرأة لم يكتب أحد عن المرأة ... كما أن الرؤية التى لدينا عن المجتمعات هى فى الواقع رؤية رجال .

أما الجزء الثالث والأخير فيعرض بارنت بعض الإحصائيات والجداول والبيانات المكثفة التى تهدف الى قياس التنمية ... حيث يهدف هذا الجزء من الكتاب الى تعريف وقياس التنمية ويبين "بارنت" أنه قد أجل هذا التعريف وهذا القياس لكى يتعرف القارىء على صعوبة تحديدهم من خلال تعرفه على التنمية ومداخلها وأسسها من خلال فصول الكتاب الثمانية السابقة فتحديد مفهوم التنمية ليس بالسهولة شأنه شأن معظم التعريفات فى علم الاجتماع .

وفى النهاية يمكننا القول أن التتبع التاريخى لنظريات التنمية ينتهى بنا إلى أن التنمية فى الدول النامية لابد وأن تتعدى مرحلة التخلف عن طريق الانتقال من التقليدى الى الحديث وبالتالى فهى تتعرض لمفهوم "معوقات التنمية" وأن الاستغلال الرشيد للموارد هو بداية الطريق نحوالتنمية مع أن الاستغلال الرشيد للموارد يتوقف دائما على الظروف التاريخية والاقتصادية لكل مجتمع على حدة ولابد من دراسات اقتصادية واجتماعية وسياسية وفى ضوء البعد التاريخى للمجتمع المراد تنميته . وبالتالى فالتخطيط العلمى السليم هام وضرورى. ولكن أى

تخطيط وأى ايدولوجية يستند إليها هذا التخطيط ... ولذلك فنظريات التنمية لابد وأن تدرس وتحلل المجتمعات آخذه فى الاعتبار الظروف الخاصة بالمجتمع المراد تنميته ... ولذلك نجد أن العالم قد شهد أنواعا متعددة واشكالا مختلفة من التنمية ...

إن المجتمع الدولى الجديد يمثل انعكاسا لوجود بناءات اجتماعية متمايزة وكما فسر علماء اجتماع القرن التاسع عشر المشكلات التى نتجت عن ظهور الصناعة والرأسمالية ... فإننا نجد نفس الأزمة اليوم وعلى المستوى الدولى ، إن انهزام الولايات المتحدة فى ڤيتنام وأزمة البترول سنة ١٩٧٣م بالإضافة إلى بعض العوامل التى حدثت فى الستينات والسبعينات كونت خلفية ضرورية لإعادة تقييم الحياة فى الدول المتقدمة صناعيا .

وكان ذلك مثار لنقد النظريات الموجودة وظهور أفكار جديدة كانت نتاج ذلك الوقت لتفسر ما يحدث فى دول العالم النامى من مشكلات هى فى الواقع مختلفة كلية فى ابنيتها . وعلينا الآن أن نفكر كثيرا فيما يسببه أغنياء العالم لفقرائه ... سنوات مضت على الدول النامية ولم يفعلوا شيئا ، وعلماء التنمية تناقش وتنقد وتعيد تقييم ما يحدث فى الدول المتقدمة ، وهو مثار لنقد "المادية" واهتمام بما يدور من أفكار فى الدول النامية ، وهل مستقبل التنمية يمكن الحصول عليه من خليط من "إعادة الاكتشاف" واستحسان الممارسات التقليدية ، والأفكار الجديدة والتكنولوجيا الخاصة بدول العالم الأول ؟

كل ذلك يمكن أن يحدث فقط إذا ما أراد الناس حدوثه وفى إمكانهم أن يفعلوا ذلك ويحققوه إذا ما حصلوا على القوة الاجتماعية التى تحمى مصالحهم على المدى البعيد .

القاهرة فى اكتوبر ١٩٩١

سهير عبد العزيز

مقـــدمة

يهتم هذا الكتاب بعلم الاجتماع والتنمية ، ولا يقوم على حسابات عامة للتنمية ولا يبحث في السياسة الاجتماعية لدول العالم الثالث فحسب . بل إنه يبحث في كلا الاتجاهين . ولذا فهو كتاب مخالف تماما عن غيره .

ولقد ركزت على علم الاجتماع وليس على السياسة أو التنمية ، لأن فى اعتقادى أن علم الاجتماع والأنثروبولوجيا يقدمان دائما رؤية لمشاكل التنمية فى دول " العالم الثالث " (والتى يهتم بها هذا الكتاب) . وفى الدول "الصناعية والمتقدمة" ، فالمنظور الاجتماعى أو الرؤية الاجتماعية أداة فعالة وقيمة .

ولقد زاد اهتمامى بالتنمية بطريقة أو بأخرى منذ بداية عام ١٩٦٢ عندما عملت كمدرس متطوع بسيراليون . وفى ذلك الوقت ، كنت أعتقد أن التنمية مشكلة مباشرة للتعليم .

وعدت بعد سنة مدركا أنها ليست القضية ، وأن العملية (على فرض أنها عملية) أكثر تعقيدا وأنها تتطلب فهما تاريخيا وثقافيا ، و فهما للطرق السياسية التى نظمت حياة هؤلاء الشعوب اجتماعيا .

ولقد قمت بالعمل لمدة ١٤ عاما فى قسم دراسات التنمية بجامعة شرق أنجليا في نورش . والتدريس هنا عبارة عن مدخل للتنمية يشمل العلوم البيئية كالهندسة والزراعة وعلوم التربية والرؤية العلمية الاجتماعية . ولقد تعلمت من زملائى وطلابى بعض الطرق التى تسهم فى عملية الفهم . وقد حصلت أيضا خلال هذه السنوات على عدد من الأعمال ، كما وانتنى فرص للعمل فى التنمية بمكتب التخطيط بقينا الجديدة (Papua New Guinea) وفى وزارة التعاون بالأردن وفى مشروع التنمية فى زامبيا مع آخرين ، ولقد تعلمت الكثير فى كل هذه الأماكن .

ومن بين الدروس المستفادة عن قيمة المنظور الاجتماعى ، كنت أشك فيها من قبل . (إن مشاكل العالم الثالث هذه الأيام ليست غياب الأخصائيين الفنيين) ، وإن غياب الأخصائيين الفنيين لم يكن سببا فى مشاكل العالم الثالث هذه الأيام – فبلاد كالهند وباكستان يتوفر فيها الأخصائيون الفنيون ، وإن البلاد التى بها عجز فى هذه الناحية تستطيع شراءهم . إلا أن أهم المشاكل هى المشاكل الاجتماعية والسياسية . وأحد هذه الأمثلة مثال الثورة الخضراء ، وهى

عبارة عن عدة تغيرات تهدف إلى زيادة الإنتاج الزراعى ، والدرس من هذه التجربة (التجربة التى غيرت حياة ملايين من الناس) إن الإنتاج الكفء لا يؤدى مباشرة أو إطلاقا إلى العدالة الاجتماعية ، وربما يؤدى فى بعض الحالات إلى فقر متزايد وبؤس .

إن النهاية فى هذا الكتاب نجدها مصبوغة بصبغة سياسية ، لأن مناقشة أى علاقات إنسانية اجتماعية ترتبط دائما بالقوة والسيطرة على المصادر المختلفة والتى تقوم عليها القوة . فالقوة الاجتماعية تأخذ عدة أشكال ، منها الاقتصادى والثقافى والجنس – وهناك فهم للعلاقة بين علم الاجتماع وتحليل التنمية ، وهذا يعطى تفسيرا لحدوث التنمية أو عدم حدوثها . إن مثل هذه الدراسة توضح الكثير عن الدول المتقدمة وعن مثيلاتها من الدول النامية . وقد حاولت تجنب الفصل أو الانقسام بيننا نحن الذين نعيش فى الدول المتقدمة وبين هؤلاء الذين يعيشون فى الدول المتخلفة (فهناك فروق مجتمعات هذين العالمين) وإلا فقد هذا الكتاب أهميته . ولكننا جميعا مواطنون فى هذه الدنيا ، وتاريخ هذا العالم فى خلال الخمسمائة سنة الأخيرة جعلنا جميعا متشابكين ، فنحن نشارك فى الموارد والخبرات والأفكار ، وهى مشتركة ونتقاسمها بطريقة ما غير متساوية . وعلم الاجتماع يخبرنا بالكثير عن عدم التساوى وكيفية حدوث ذلك . وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب لدارسى علم الاجتماع فى سنواتهم الأولى وكذلك للباحث المتخصص فى هذا العلم . ولخدمة هذا الهدف ، فقد استخدمت اطرا من خلال النص تخدم هدفين ، فهى تزودنا بأمثلة وإيضاحات لبعض نقاط النظرية العامة ، والهدف الآخر فهى توضح الأفكار الصعبة .

والقارىء له الاختيار إما بالقراءة مباشرة من خلال النص أو يلقى نظرة على الأطر للمساعدة فى الحصول على معلومات إضافية . ولقد ساعدنى الكثير من الناس فى كتابة هذا الكتاب .

تونى بارنت

نورش سنة ١٩٨٧